**الأربعاء: 2023/11/22**
**التوقيت: 14:50 – 16:20**
**عن بعد**

**الدرس رقم 06: أثر الاستشراق في الأدب العربي**

مر الأدب العربي بمراحلَ أولُها العصر الجاهلي الذي كان عبارة عن ملاحظات وآراء شعرية ونثرية أساسها الذوق السليم والفطرة الطبيعية، وقد انكشف الأدب في مباريات وأندية كسُوق عُكاظ الذي كان يَعُج بأهل الشعر وتعرض فيه الأحكام الشعرية و النقدية.

ومع دخول الإسلام الأماكن والأمصار قلا بعضه وهذب لفظه وعز نظمه ... وتقدم شأنه في عصر الدولة الأموية وذلك في مجالس الأمراء الأدبية وعطاءاتهم السخية، فأقبلوا عليه دون إحجام...

أما في الزمن العباسي أُقيم صرح الأدب واللغة وجميع العلوم وتناول أهل الأدب ديوانهم بالنقد والتحليل والتصنيف، وحاولوا أن يردُوا كل نص إلى مصدره وأن يبحثوا في الرواة ومبلغهم من الصدق والكذب.. ونذكر منهم مثلا: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، والشعر والشعراء لابن قتيبة، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، والموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ....وغيرهم كثير." ويعتبر كتاب البيان والتبيين للجاحظ وأدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرد والنوادر لأبي على القالي أصولاً للأدب وما سواهما فروع منها"

وجاءت بعد زمن أرمدة من علماء الاستشراق أزالوا الغبار عن مخطوط العرب حيث جمعوا الكتب، ونشروا نفائسها وأنشؤوا المكتبات وأسسوا المعاهد ووظفوا الأسلوب العلمي والمنهج الأكاديمي في بحوثهم، فكانوا في كثير من الأحيان قدوة للدارسين العرب المحدثين من معلمي لغتهم ومؤرخي تراثهم وباحثي أدبهم ونقدهم.

لقد ثَّور المستشرقون عدة قضايا في أدبنا المعاصر، وما كانا من بعض العرب إلا اختيار طريقهم ونهجهم، ومنهم من اكتفى بالرد عليهم وعلى أتباعهم مما أدى في النهاية إلى نهضة أدبية كبيرة خاصة في النصف الأول من هذا القرن، وظل صداه يتردد من حين إلى حين آخر إلى الآن وربما سيظل أمداً طويلا.

ويتجلى مما قُدم أنَّ الاستشراق قد اِنصبت عنايتُه على التراث الشَّرقي كُلّه– قديمه وحديثه بوجه عام، وعَكف بكُلّ ما أُوتي من وسائل مادية ومعنوية على دراسة نُظم الإسلام بوجه خاص، إذْ هُو المِفتاح الأساس لفهم عقلية الشرق وأحوالهم؛ وأيقن أنَّ حقيقة الشَّرق هي دراسة اللغة العربية للتعمق والولوج في حضارة العرب، كما قام بترجمة عدد هائل من الكُتب العربية إلى اللغات المختلفة، وعني بتحقيقها وكشف عن مخطوطاتها ونظْم فهارسها، وهذا التحقيق والمعالجة في النُّصوص قام بها أسلافُنا الأقدمون في رواية كُتب الحديث واللغة والشَّعر والأدب والتاريخ في دقة وأمانة وجهد وطلب، وتَبنى المستشرقون إحياء هذه الفنون والعلوم، ونبغ منهم علماء قاموا بنَّشر نفائس جليلة من التراث العربي.

فلولا عناية المستعمرين بإحياء آثارنا، لما اِنتهت إلينا تلك الدُرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة، وطبقات الحفاظ، ومُعجم البلدان، ومُعجم الأدباء، ومُعجم ما أُستعجم، وفتوح البلدان، وفِهرست اِبن النديم، ومفاتيح العلوم، وطبقات الأطباء، وإخبار الحكماء، والمقدسي الاصطخرى، وابن حوقل، والهمدانى، وشيخ الربوة، وابن جبير، وابن بطوطة إلى عشرات من الكتب الجغرافية، والرحلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي، ووقفنا على درجة حضارتنا، ولولا إحياؤهم تاريخ اِبن جبير واِبن الأثير وأبي الفداء واليعقوبى والدينوري والمسعودي وأبى شامة وابن الطقطقى، وحمزة الأصفهاني وأمثالهم لجهلنا تاريخنا الصحيح في عماية من أمرنا"

ويعود سبب اشتغال المستشرقين بالأدب العربي إلى:

1/ صلة هذا الأدب بالوحيين {القرآن ، السنة}

2/ أهمية الأدب العربي لدراسة الشخصية العربية وفهمها.

3/ أثر الأدب العربي في آداب مختلفة ومنها الآداب الأوربية.

4/ منزلة الأدب العربي المرموقة بين الآداب العالمية.

وعليه أمد المستشرقون الأدب بمدد وافر من التعليقات والشروحات، وبعثوا حركة التحديث في جميع ميادين المعرفة والعلوم. وقد انبرى العرب إليهم وناقشوا آراءهم ... فمثل هذه الأمور لا يمكن أن تمر بدون التأثير والتأثر معاً.

ومن هنا يجب أن نعترف أن ما ناقشه الاستشراق في أدبنا ولغتنا وفكرنا لشيء يستحق الرجوع إليه وقراءته ومراجعته، لكن لا يجب التسليم به وقبوله كليا فهو في غالبه ينفي الحقيقة بحجج واهية.

**فهذا كارل بروكلمان 1956/1868م** يقول في شعر حسان أنه مبتذل وألفاظه بسيطة وسهلة ويقول إن سبب انتشار شعر حسان يعود إلى مدح الرسول ص" وأكثر شعر حسان قريب الألفاظ إلى حد الابتذال، ولا يصل إلى مستوى جد رفيع، وإنما يرجع فضل انتشاره والتعلق به في الأزمنة المتأخرة إلى غرضه العظيم الأهمية وهو مد النبي".

**أما كارل نللينو: 1872-1938** يخالف موقف ابن سلام وابن خلدون وغيرهم من الطرح القاضي بضعف القريحة الشعرية والإبداعية في صدر الإسلام لأنهم اخرصوا ببيان وبلاغة القرآن الكريم وانشغالهم بالفتوحات الإسلامية والجهاد، وقد هلك كثير من الناس مما أدى إلى ضياع كثير من الشعر، ليقول "إن الآداب العربية في ذلك العصر زاهية، وأن الشعراء لم ينصرفوا عن أنواع قريضهم ولا الخطباء عن سجع نثرهم"، وكان يعترض أيضا على قول الأصمعي "إن الشعر نكد بابه الشر فإذا دخله الخير لآن وضعف" ويبرر ذلك بأن البيئة الإسلامية شجعت قول الشعر في الفتوحات الإسلامية والحماسة.

في حين **اغناطيوس كراتشكوفسكي 1909-1972م** تكلم عن البديع عند العرب وتساءل هل البديع هو إنتاج عربي أم منقول؟ وأراد كشف المؤثرات الخارجية التي يمكن أن تكون قد أثرت في وضع ابن المعتز علم البديع، وراح يبحث في احتمال أن تكون مؤثرات هندية وفارسية.

**وغوستاف فون غروبناوم 1909–1972م** يقول إن الفكر اليوناني رائدا للفكر العربي في الشعر وفي البلاغة واللغة والمعاجم... فهو لا يريد أن ينسب للعرب أية فضيلة أو ابتكار، بل جميع علوم وتراث وفكر العرب منحول من تراث اليونان.

وقد اهتم المستشرقون اهتماماً كبيرة بتأريخ وتاريخ لأدب العربي، حيث قُسم تاريخ الأدب العربي حسب العصور السياسية المختلة–نظام الحكم– وما قام به القدماء العرب هو تصنيف الأدباء حسب مواليدهم أو حسب وفاتهم وفي بعض الأحيان حسب أنواع مواضيعهم المختلفة.

فنجد مثلا كارل بروكلمان يقسم كتابه "تاريخ الأدب العربي" إلى خمسة وعصور:

1- عصر ما قبل الإسلام.

2- عصر ظهور الإسلام

3- عصر الدولة العباسية.

4- عصر ما بعد سقوط بغداد.

5- عصر البعث الجديد في القرن الماضي حتى العصر الحاضر.

ويذهب نللينو في كتابه "تاريخ الآداب العربية" إلى تقسيم تاريخ الأدب إلى ستة عصور:

1- العصر الجاهلي.

2- العصر العربي الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية750 م.

3- العصر العباسي الأول.

4- العصر العباسي الثاني.

5- عصر الانحطاط.

6- عصر البعث الجديد.

لاشك في أن رودا من الأدباء والفلاسفة والنقاد في العالم العربي والاسلامي كانوا من بين أولئك الذين تعلموا على أيدي المستشرقين، وفي النموذج نذكر الدكتور **طه حسين** صاحب كتاب "في الأدب الجاهلي" لقد استفاد من جهود هؤلاء المستشرقين وأمثالهم واستخدم مصادرهم ومناهجهم في دراسة الشعر العربي القديم والحضارة الإسلامية، فالكاتب قد مس مشاعر العرب والمسلمين في:

- الوحدة القومية والعاطفية الدينية.
- الإيمان بتواتر القرآن وقراءاته وأنه وحي من عند الله.
- كرامة السلف من أئمة الدين واللغة.
- محاولة التشكيك في صدق القرآن ونهيه عن الكذب.
- محاولة إضاعة الوحدة الاسلامية.
- حرمة الصحابة والتابعين.
- تتريه القرآن عن التهكم والازدراء.
- تتريه النبي وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف.
- براءة القرآن مما رماه به المستشرقون من أعداءه.
- إساءة الأدب العام مع الله ورسوله.

بنى طه حسين موقفه من الشعر الجاهلي متبعا منهج الشك بل رفض كل ما أورده القدامى من الأدب سواء شعرا أو نثرا، فيقول: "أريد أن أقول الشك، أريد ألا أتقبل شيئا مما قاله القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبيت، إن لم ينتهيان إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان".

فها هو يصرح بجرأة وعلانية عن نظريته التي تبناها في طرحه غير آبه لردود من حوله، حيث يقول: "فأول شيء أفاجئك به في هذا الحديث هو أنني شككت في قيمة الأدب الجاهلي، وألححت في الشك، أو قل ألح على الشك، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر حتى

انتهى بي هذا كله إلى شيء إن لم يكن يقينيا فهو قريب من اليقين، وذلك أن الكثرة المطلقة مما يقال أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام".

إذن فمن الواضح أنه لا سبيل لأحد إلى إنكار أثر الاستشراق في اتجاهات طه حسين، ولكن إذا كان هذا الكتاب أثار ضجة كبرى لما يتضمن من الأفكار الخطيرة حقا فإنه قد أثار النقاء، فاضطروا أن يتصدوا له بكل ما كان لديهم من علم وقوة وفكرة، وهكذا جاء مؤلفه نقد أحدث في العالم العربي هزة شديدة لما دواه من جرأة في نقد أساليب القدماء، وتهور في إبداء الرأي، ورفض الحقائق المقدسة اعتمادا على العقل القاصر أو البراهين الزائفة أو المخالطات الجزئية".

ولمواجهة فكر طه حسين نرى أن عشرات من المؤلفات ظهرت في المكتبة العربية لتتناول الشعر الجاهلي، مثل العصر الجاهلي لشوقي ضيف، ومقامات العرب لبدوي طبانة، وتاريخ الأدب الجاهلي لعلي الجندي، والحياة العربية من الشعر الجاهلي لأحمد شوقي وغيرها.

ويتضح لكل من يدرس كتاب "في الأدب الجاهلي" لطه حسين" أنه قد استفاد من كل ما ثقف من معارف، وما قرأ من كتب وما استمع إلى محاضرات حتى استطاع أن يجمع بين ثقافات عميقة واسعة متعددة صبها في عقله الخصب الذى اتخذها وصهرها في بوثقة أفكاره وطبعها بطابع عبقريته وشخصيته، وأحدث في عالم النقد ضجة أيقظت نياما وأثار في الفكر العربي ثورات حررته من قيوده وجموده ورسمت له طيقا جديدا فأعطانا أدبا رائعا، وفلسفة خالدة وفكرا لايليه الزمان.

لقد استفاد طه حسين مما كتبه المستشرق مرجليوت في مقالته "أصول الشعر العربي"، حيث حاول التأكيد على إفشاء النظرية المزعومة التي روجها له مرجليوت، وادعى خلالها أن الشعر الجاهلي وضع أكثره بعد الاسلام، ويؤسس شكه على أساس المماثلة بين لغتي القرآن الكريم والشعر الجاهلي، متخذاً من هذا التماثل دليلاً على أنَّ ما وصلنا من الشعر الجاهلي إنما هو وليد مرحلة لاحقة لظهور الإسلام، يضاف إلى هذا أنَّه يلمح ملاحظات تتجلى في طبيعة القصص الديني والألفاظ الإسلامية التي تشيع في الشعر الجاهلي فضلاً عن خلوه من الآثار الدينية الوثنية.

وكان القصد من وراء ذلك تحطيم الدعائم التي كان يقوم عليها القرآن الكريم، وبالتالي هدم عددا من القيم والثوابت في الفكر الإسلامي والأدب العربي. ويعترف بتأثره قائلا: "أريد أن أقول بأنى سألك هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة."

إن تعطش طه حسين إلى إدراك حقيقة الأدب الجاهلي كان دأبه وغايته، بل لكل مفكر وباحث غاية وهدف يسعى إلى تحقيقها ومعرفة اليقين فيها، إذن كان لابد لطه حسين "أن يعرف هذه الحقيقة فتقدم لنقد هذا الأدب البريء، إذ يسيطر على نقده شكوك ديكارت، والحقيقة أن روح النقد والإثارة عن طريق التشكيك في القيم والمسلمات السائدة استولت على طه حسين وبدت معالمها فيما خط قلمه، وخاصة ما كتبه في مرحلة شبابه".

ومن جملة الآراء التي أبداها الدكتور طه حسين حول الأدب العربي القديم من واقع تأثره بآراء المستشرقين، القول بأن الجزء الأكبر من الشعر الجاهلي إنما هو في الحقيقة شعر منتحل، وقد أطلق هذه الفكرة قبله المستشرق الإنجليزي مرجليوث قائلاً: "بدأ المسلمون في حوالي نهاية العصر الأموي يدعون وجود شعر جاهلي عربي، ولم يكتفوا بذلك حتى زعموا أنهم جمعوا الجزء الأعظم منه.

إننا نستطيع أن نقول دون أدنى مبالغة أن طه حسين لم يكن في الحقيقة سوى ثمرة من ثمرات الإستشراق، ومُبشر بالمبادئ والأصول التي دعا إليها المستشرقون في مجال دراسة الأدب، وعلى صعيد الرؤية العامة للأدب العربي الكلاسيكي في عصوره المختلفة. ولعل تأثره بالمستشرق صموئيل مرجليوث السبب في ذلك.

وقد بلغ من تحمس طه حسين لمناهج المستشرقين في البحث الأدبي، والاستنتاجات التي توصلوا إليها في هذا المجال أنه قال ما نصه: " وكيف نتصور أستاذاً للأدب العربي لا يَلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج من النتائج العلمية حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته المختلفة؟ وإنما يُلْتَمَس العلمُ الآن عند هؤلاء الناس، ولابد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا، ونطير بأجنحتنا، ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وآدابنا وتاريخنا."

إذن عمل طه حسين لحساب نشر المبادئ والنظريات المغالطة للشرقيين من خلال انتهاجه منهج الغربيين، ولم يع حقيقة هذه المناهج أو ربما تجاهل هدف أصحابها، ألا وهو كسر الجسر الذى يربط بين الأدب العربي الحديث وبين الأدب العربي القديم وبالتالي يخضع هذا الأدب الأصيل لمناهج ونظريات غربية التي طالما سعى الغرب إلى تحقيقها.

ومن الأدباء العرب الذين تأثروا بالمنهج الاستشراقي ونريد ذكره هو المؤرخ والروائي جرجي زيدان، هذا الكاتب حين يختار موضوع رواياته لا يلجأ إلى الفترات المشرقة التي تمثل أمجاد التاريخ العربي دائما، ولكنه يختار المواقف الحساسة التي تمثل صراعا بين مذهبيين وسياسيين أو بين كتلتين تتصارعان على النفوذ والسيطرة، فهو في الوقت الذى يحدثنا عن فتاة غسان لا نجده يعترض لفترة ظهور الاسلام ففي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا لفترة انتشار الاسلام وفتوحاته في عهد خلفائه، إنما يعبر لهذه الفترة ليقدم لنا مجموعة من الروايات التي تمثل الصراع السياسي في عهد بنى أمية، وآخر في عهد عثمان وهى عذراء قريش، فغادة كربلاء والحجاج بن يوسف، وهو لا يختار من العصر العباسي الأول إلا شخصية أبى مسلم الخراساني التي تمثل الصراع بين العناصر العربية والفارسية، وشخصية العباسة التي تمثل الصراع بين الرشيد والبرامكة، وشخصيتي الأمين والمأمون وهما يمثلان عودة الصراع بين العرب والفرس من جديد.

" لقد كان جرجي زيدان بمعرفته للغات واطلاعه على المناهج الجديدة أشبه شيء بهمزة وصل بين الحركة العلمية العربية وحركة الاستشراق المتدفقة النشاط في أوربا وأمريكا، واتصلت العلاقات بينه وبين أعلام المستشرقين، مثل (ثيودر نولد) و(يوليوس فلهاوزن) و(مارجوليوث) و(ادوارد سخاو). وكان معظم هؤلاء يتوافدون على القاهرة للدراسة أو البحث عن المخطوطات أو لنشر بعض ما أعدوه من مخطوطات عربية، فاتصلوا بجرجي زيدان وأخذوا عنه وأخذ عنهم، ووجدوه يبحث عن أسلوبهم مع تفوقه عليهم في العلم بالعربية فعظمت قيمته في أعينهم وأقبلوا يقرؤون في الهلال وما ينشر من كتب، وتصدى نفر منهم لترجمة بعض روايات تاريخ الاسلام، فكانت هذه الروايات من أول ما ترجم من اللغة العربية من عيون الأدب العربي الحديث"

مع ذلك نجد جانبا إيجابيا للاستشراق وهو ما اتضح في قول عمر فروخ: إن بعض المستشرقين قالوا في الاسلام كلاما صدقا، فها هو المستشرق غوستاف لوبون في كتابه

"حضارة العرب" يعترف بموروث العرب وبمكانته بين الآداب العالمية لأن الأدب يشكل أحد أفضل السُبل للتقارب بين الشعوب، لأننا نستطيع أن نتلمس من خلال ما ينتجه شعب من أدب مَلامح الوجه الحقيقي لهذا الشعب. ويقول: ما عجز عنه الإغريق والفرس والرومان قدر عليه العرب بسرعة، ومن غير إكراه....ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب،... وإن أوربا مدينة للعرب بحضارتها ... وترى تأثيرهم العلمي والأدبي والخلقي فيه عظيما". غير أنهم قلة وصوتهم غلب عليه ضجيج المناوئين الحاقدين على الاسلام.

ثم يستخلص في الأخير أن الفكر الاستشراقي في جملته لم يكن علميا ولا خالصا لوجه الحق والإنصاف، لأسباب يمكن إيجازها فيما يلى:

- رعاية كل من الكنيسة والاستعمار للاستشراق عبر كل مراحل تطوره.
- نشأته في أحضان الرهبان والقساوسة، واهتمامه بالأباطيل والسخافات.
- مجافاة المنهج العلمي في الزعم ببشرية القرآن، وعدم صدق الرسول (صلى الله عليه وسلم).
- إهمال المصادر الإسلامية الأصلية والاحتفاء بغيرها من المصادر المشبوهة.
- التظاهر بالموضوعية والتجرد، ثم دس السم في الدسم بالتمويه والتلبيس.

اتضح جليا أن المدرسة الإستشراقية لعبت دورا كبيرا في أثر النهضة العربية الحديثة وساعدته مساعدة فعالة في القيام بدراسة الأدب ونشر أرائه وبحث أفكاره...